

## واقع النشر والكتاب بالمغرب

حسن الوزاني  
كاتب مغربي

قبل قرن ونصف، حل فقيه مغربي يندرج من منطقة سوس الواقعة بجنوب المغرب، بالقاهرة، وقرر، في ظروف ما، أن يقتني مطبعة ليحملها معه إلى المغرب، مصحوبا بمطبعجي مصري، التزم الفقيه بتحمل نفقاته وآتاعبه. وبحلوله إلى ميناء مدينة الصويرة المغربية، صودرت المطبعة ليتم استعمالها، بعد مدة، من طرف السلطات المغربية. غير أنه بوصول المطبعة إلى المغرب، يكون الروادني، دون أن يدري ربما، قد أدخل البلاد إلى مرحلة جديدة من التواصل والتي تجلت بعض مظاهرها في عقود من إنتاج المطابع الحجرية التي ستعرفها مدينة فاس.

### مطابع أقل وحاجيات أكبر

سيظل عامل التأخر الذي عرفه دخول الطباعة إلى المغرب سحابة ستؤرق، إلى حد الآن، مسارات تطور الحلقات السابقة. ففي ما يخص مجال الطباعة، لم يكن عدد مجمل المطابع بالمغرب، بما فيها الوحدات الصغيرة وتلك التي تختص في طبع كل شيء إلا الكتاب الثقافي، يتجاوز 125 مطبعة خلال سبعينات القرن الماضي، وانتقل هذا العدد إلى حوالي 500 مطبعة، مع بدايات الألفية الجديدة. وهو ما يشكل حوالي خمسة بالمئة من مجموع وحدات الصناعة التحويلية بالبلد.

ولا تتجاوز وتيرة تأسيس المطابع بالمغرب، بمختلف أحجامها ومجالات اشتغالها سبع مطابع في السنة. وهو ما يظل بالتأكيد دون الحاجيات التي تتزايد باستمرار، على مستوى طبع الكتاب الثقافي وبشكل أكبر على مستوى طبع الكتاب المدرسي.

وفي ما يخص طباعة ومجلات الإنتاج، يظل طبع الكتاب الثقافي، في كثير من الأحيان أمرا ثانويا بالنسبة إلى أغلب هذه الوحدات. فمشروع اقتصادي بحجم مطبعة لا يمكن رهنه طبع دواوين شعرية لا يتجاوز عدد سحبها، في أفضل الأحوال، الألف نسخة. ومطبعة الأندلس بالدار البيضاء خير مثال على ذلك.

ويظل طبع الكتاب المدرسي أحد الخيارات الأفضل لعدد من هذه المطابع، بل إن هذا الخيار كان وراء تأسيس مطابع جديدة وتحديث تجهيزات أخرى، وخلق أيضا كثيرا من الأوراق من خلال تحول مطابع إلى دور نشر، واندماج دور أخرى، وتحول دور نشر ثقافية إلى دور لطبع الكتاب المدرسي.

فتحت دخول الطباعة الحجرية إلى المغرب هامشا لخلق بعض تقاليد النشر، حيث ظهر بعض المشرفين على طبع الكتب التي كان أغلبها في علوم الفقه، ومن هؤلاء محمد بنونة الذي طبع الكتاب الشهير "الإتقان والإحكام" لمبارية. بل إن بعضهم قد خلق بعض أشكال النشر المشترك، خصوصا في حالات الأعمال الضخمة التي تقتضي إمكانيات أكبر، كما هو الأمر بالنسبة إلى التعاون بين عدد من العلماء من أجل طبع كتاب "المعيار الجديد الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب" للمهدي بن محمد بن الخضر الوزاني، في أحد عشر مجلدا.

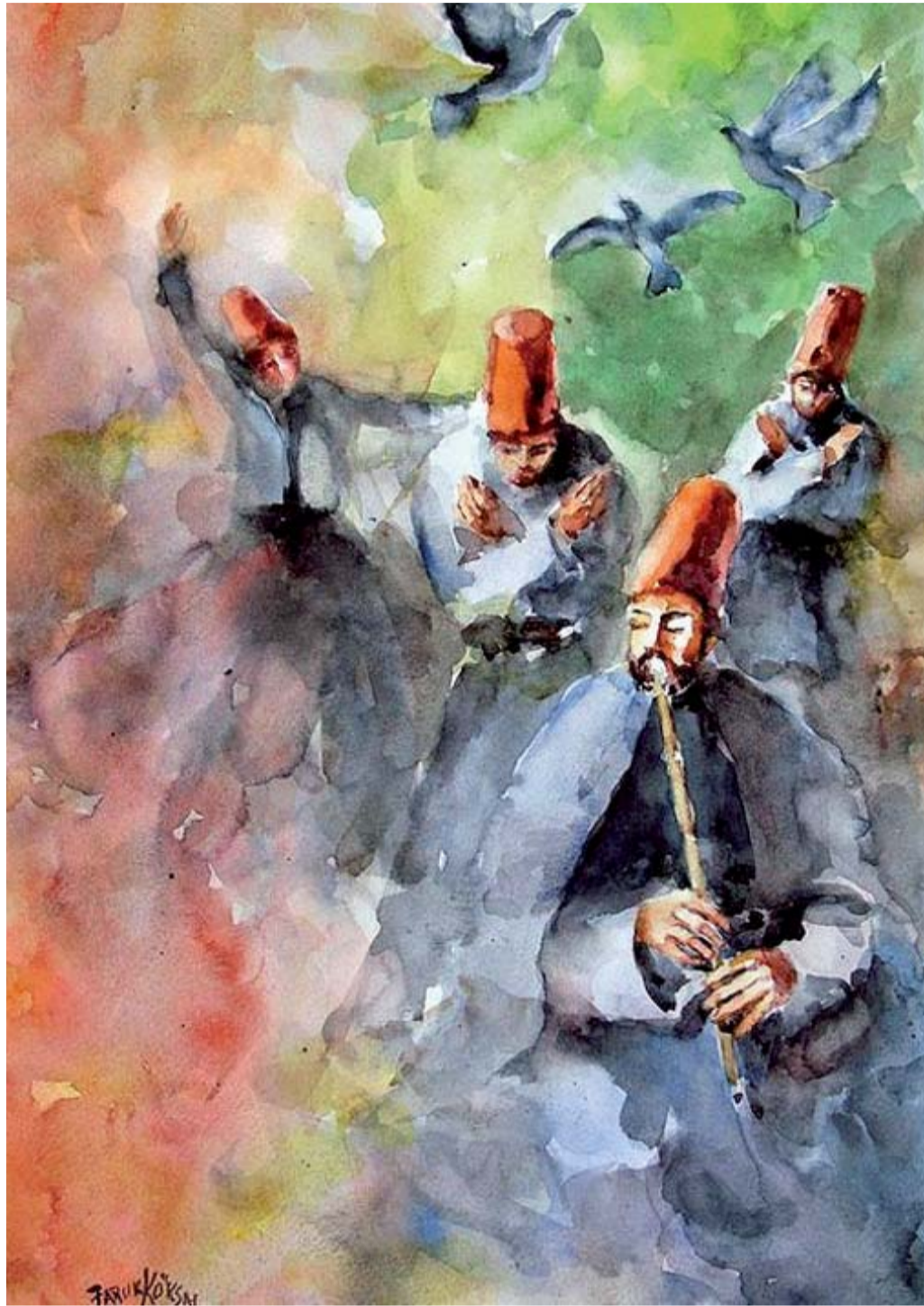
في مقابل ذلك، سيتأجل ظهور دور النشر، بمفهومها الحديث، إلى سنوات الثمانينات من القرن الماضي، خصوصا مع ظهور دار توبقال للنشر التي كان وراء تأسيسها، سنة 1985، الشاعر

ولا يفوت الروائي أن يعري مظاهر التخلف في الجسد العربي، عبر استحضار صورة تختين وتشكيل الإناث، في مقابل الشبق الذكوري واستيهاماته، ومفارقة الفحولة والإخصاء... ذلك أننا بصدد سيرة تحكي رواية الروح، ورواية تحكي سيرة الجسد أيضا.

وعموما، فما أشبه اليوم بالبارحة. ذلك أن شخصيات الحلاج وابن عربي وجمال الدين الرومي التي جددت القصيدة العربية المعاصرة مع صلاح عبدالصبور وعبد الوهاب الباتني وأدونيس والأخريين، ها هي تلهم الروائيين، هذه المرة، وتنهض من النسيان لتخاطب قراء غالبهم النوم في أزمنتنا وأزماننا المعاصرة.

## سعودي يفوز بجائزة الشارقة للرواية

رواية مقبول العلوي تستحضر طيف الحلاج وتغرق في دمه المهذور



### صوفيون المهمو الأدب وأثروا فيه

ومختلفها المستشرق الشهير لويس ماسنيون، كبير المتخصصين في تراث الحسين بن منصور الحلاج، صاحب الطواسين والأشعار، وعجائب الكرامات والأخبار. هكذا، يظهر طيف الحلاج لبطال الرواية، ويامر به بأن يكتب مخطوطته، أي مخطوطة الحلاج، وحكاياته من جديد.

ويحاول الكاتب أن يترك المخطوطة مفتوحة على اللانهاية، وهو يتساءل: "كيف أكتب نهاية المخطوطة؟". مستعيرا مقولة لدرويش عن القصيدة، بينما يقول هو "لا أريد لهذه المخطوطة أن تنتهي"، وقد التبست عليه بداية المخطوطة بنهايتها، مثلما التبس عليه الزمن، وهو يتساءل "لا أعرف هل كنت أكتب سيرتي أم سيرة الحلاج؟".

لا يتوقف الأمر عند مجرد الاستعانة بالمخطوط، بما هو تجربة كتابية مضاعفة، يرد فيها نص تخيلي مقترض ضمن النص الروائي. فقد لجأ مقبول العلوي إلى نصوص أخرى، من بينها اليوميات، التي كتبها الدكتور فالح، ويقر فيها بعجزه الجنسي، لما تزوج حليلة، وبكراهيته لابن عمه نوري إبراهيم، إلى جانب الشهادات التي أوردها الكاتب عن الحلاج على لسان معاصريه، كما جاءت في المصادر التاريخية، حيث يقترح علينا السارد إعادة محاكمة الحلاج في الزمن الراهن.

ولا يفوت الروائي أن يعري مظاهر التخلف في الجسد العربي، عبر استحضار صورة تختين وتشكيل الإناث، في مقابل الشبق الذكوري واستيهاماته، ومفارقة الفحولة والإخصاء... ذلك أننا بصدد سيرة تحكي رواية الروح، ورواية تحكي سيرة الجسد أيضا.

وعموما، فما أشبه اليوم بالبارحة. ذلك أن شخصيات الحلاج وابن عربي وجمال الدين الرومي التي جددت القصيدة العربية المعاصرة مع صلاح عبدالصبور وعبد الوهاب الباتني وأدونيس والأخريين، ها هي تلهم الروائيين، هذه المرة، وتنهض من النسيان لتخاطب قراء غالبهم النوم في أزمنتنا وأزماننا المعاصرة.

كان المكي يريد لها زوجة ثالثة له، وكما نجح المغرضون في التعريض بالحلاج وصلبه وتقطيع ألبه وأرجله من خلاف، والتشهير بجثته، تعرض نوري للانقسام من ابن عمه عن طريق الإخصاء، ثم عاد نوري لينتقم منه ويقتله في مشهد درامي ختامي.

### مخطوطة الحلاج

رغم رفض أطروحتيه، لا يزال نوري يواصل البحث في تراث الحلاج. بل إن هذا الرفض لم يزهه غلا تعلقا وإصرارا. وفي ظل هذه الأزمة الخاصة، قرر نوري البحث من جديد في المصادر والذخائر والمطالعة لفهم كل هذا الحقد الذي طال الحلاج وتربص به. وقرر صاحبنا إعادة محاكمة الحلاج محاكمة جديدة ومعاصرة.

هنا، اختار السارد القيام بمحاكمة جديدة للحلاج، عاد من خلالها إلى أقوال المؤرخين وما أورده المعاصرون له والشاهدون على صلبه. ثم لجأ الروائي إلى تقنية المخطوط في الرواية، حيث يعيد كتابة سيرة الحلاج، من خلال "مخطوطة الحلاج" التي كتبها بطال الرواية نوري إبراهيم، منذ الفصل الثاني من الرواية وإلى آخرها. يذكرنا هذا التوظيف للمخطوط بـ"المخطوط القرظي" لأنطونيو غالا، و"اسم الوردة" لمابرتو إيكو، و"القلعة البيضاء" لأورهان باسوق، ومحاكيات بورخيس، وأعمال يوسف زيدان من مصر وواسيني الأجرع من الجزائر ولطفية البليمي وفاضل العزاوي وضياء الجبيلي من العراق وعبدالرحيم حبيبي من المغرب...

هكذا، اختار مقبول العلوي تقنية المخطوط، وهو يكتب مخطوطة الحلاج ويروي سيرته، مستعينا بكتب التاريخ والتراجم والأخبار، في ميثاسردية مضاعفة، وكأننا به يعيد إنتاج مأساة الحلاج مرة أخرى، كما جمع مقرقها

أهلية الأستاذ نوري ورسالته الجامعية التي رماها خصومه بالإلحاد والزندقة. وقد استند الخصوم في دفوعاتهم إلى مقولات الحلاج التي يوردها الباحث في رسالته الجامعية، والتي لم يفهمها معاصرو الحلاج، ولم يفهمها معاصرو نوري إبراهيم. ما يدل على أن الوعي العربي لم يبرح مكانه منذ ما يزيد عن ألف سنة.

لكن أسباب رواية مقبول العلوي إنما تعود إلى الحقد الذي كاله الأستاند الجامعي فالح لابن عمه نوري إبراهيم، الذي يشغل أستاذًا مساعدا في الجامعة نفسها. والسبب كل السبب أن نوري سوف يتزوج بحليمة، زوجة فالح السابقة، والتي طلقت الطلاق من هذا الأخير، بعدما اكتشفت عجزه الكبير. وهنا، يكاد الروائي السعودي مقبول العلوي يختصر الحكاية في قضية جنسية، مقابل إسقاطها على قضية إنسانية هي قضية الحلاج. لكن الكاتب سوف يبرع في توظيف الرواية التاريخية

وفي رسم الخلفية الصوفية الروائية، خاصة عندما تنمأهي شخصية البطال الروائي "نوري" بالبطل التاريخي "الحلاج". يرى بطال الرواية أن ما وقع له من اتهام مرة عن حضور التصوف والتاريخ في رواياته، فاجاب بان الرواية تسمح لنا بان نقدم ما لا تستطيعه كتب التاريخ وغيرها.

رسالة الحلاج تحكي "طيف الحلاج"، الصادرة عن دار الساقى، ألام الأستاذ نوري إبراهيم، والذي تقرر الجامعة سحب شهادة الدكتوراه منه، وكان موضوعها عن "الظروف السياسية والاجتماعية التي ساهمت في ظهور التصوف خلال العصر الوسيط: الحلاج نموذجا". وقد تم تسخير وتحييش الكثير من الطلاب والجماعات المتشددة كي تطعن في

"طيف الحلاج" لمقبول العلوي رواية أخرى تستلهم سير المتصوفة وتجاربههم الإنسانية الحديثة، وتسكبها في قالب روائي معاصر. رواية توجت، قبل أيام، بجائزة الشارقة للرواية، كما جرى الإعلان عنها في افتتاح معرض الشارقة الدولي للكتاب، نهاية الأسبوع الماضي. ولم تكن مصادفة، على الإطلاق، أن تؤول الجائزة إلى روائي سعودي شغفته السردية الصوفية القديمة، هو الآخر، على غرار ما حصل مع الروائي السعودي محمد حسن علوان، حين توج بجائزة اليوكر العربية، في دورتها ما قبل الأخيرة.

مخلص الصغير  
كاتب مغربي

اختارت مجموعة من الروائيين العرب استلهام سير شخصيات تاريخية وصوفية عربية، وإعادة كتابة حياتها، في ما يشبه سيرة أو "تخيلا غريبا". وهي أعمال تلنقي فيها الواقعة التاريخية بخيال الروائي.

ولعل هذه الأعمال تزيد الاقتداء بعمل استثنائي لأمين معلوف هو "ليون الإفريقي"، وفي درجة ثانية رواية "العلامة" لبنيامين حميش، عن سيرة ابن خلدون وفلسفته في التاريخ، وقبلها روايته "مجنون الحكم" ثم روايته "هذا الأندلسي"، التي استلهمت حياة المتصوف الأندلسي ابن سبعين، صاحب الرسائل، وقبله رواية "الحوادث والقصر" للجزائري الطاهر وطار، ثم "كتاب التجليات" لجمال الغيطاني، الذي استحضر روح ابن عربي، تبعه في هذا المنزع الصوفي الكاتب العراقي المقيم في لندن لؤي عبد الإله في "كوميديا الحب الإلهي"، والكاتب السوري خليل الرز في "البلبل" وغيرهم.

لكن الغالب هو أن المبيعات والفتوحات التي حققتها "قواعد العشق الأربعون" للروائية التركية شافاك منذ ظهورها، قبل عشر سنوات من اليوم، هي التي جعلت الرواية العربية تنزع، اليوم، منزعا تجاريا، وهي تعيد على مسامعنا سير المتصوفة وأخبارهم وأيامهم. والحال أن عوالم هؤلاء روائية، في الأصل، بما أوتيت من خيالات مجنحة وتاملات محفلة.

### مقبول العلوي اختار تقنية المخطوط، وهو يكتب سيرته، مستعينا بكتب التاريخ والتراجم والأخبار

ذلك على غرار رواية "طيف الحلاج" للكاتب السعودي مقبول العلوي. وعلى غرار ما نجده في سيرة الحلاج الجديدة، التي كتبها رامز محمود محمد، وصدرت قبل أيام، عن دار الفرق، بعنوان "ترانيم الحلاج"، سعى فيها إلى "التقاط ترانيم ما كتبه الحلاج بدماء قلبه، ولحنه من صميم روحه".

والحق أن حضور الصوفي والتاريخي في المتن السرد المعاصر لا يقتصر على الكتاب العرب. ويمكن أن نستحضر هنا نص "الرومي: نار العشق" للإيرانية نهال تجدد، و"بنت مولانا" للفرنسية مول موفروي. وقد سئل الكاتب الفرنسي ريجيس دويري مرة عن حضور التصوف والتاريخ في رواياته، فاجاب بان الرواية تسمح لنا بان نقدم ما لا تستطيعه كتب التاريخ وغيرها.

### رسالة الحلاج

تحكي "طيف الحلاج"، الصادرة عن دار الساقى، ألام الأستاذ نوري إبراهيم، والذي تقرر الجامعة سحب شهادة الدكتوراه منه، وكان موضوعها عن "الظروف السياسية والاجتماعية التي ساهمت في ظهور التصوف خلال العصر الوسيط: الحلاج نموذجا". وقد تم تسخير وتحييش الكثير من الطلاب والجماعات المتشددة كي تطعن في

محمد بنيس والباحث عبد الجليل ناظم، وأيضا مع ظهور دار الفنك التي أسستها ليلى الشاواني في السنة نفسها.

ومع توالي السنوات، حققت مجموعة من دور النشر المغربية الشيء الكثير على مستوى فتح آفاق جديدة للكتاب الثقافي المغربي. ومن علامات ذلك وصول المنشورات المغربية إلى بيروت والقاهرة وعواصم الخليج وغيرها من العواصم الثقافية، وحضور الكتاب المغربي كضيف شرف على كبريات المعارض الدولية الكبرى. كما أن الحصيلة السنوية على مستوى الإصدارات تعرف تزايدا مستمرا. غير أن إنتاج دور النشر المغربية، بشكل عام، يظل دون مستوى عدد القراء المفترضين الموزعين على بقاع المغرب أو خارجه. فمجملة إنتاج الدور المغربية، ظل إلى حدود قريبة، يقارب الثلاثة آلاف عنوان سنويا. قبل أن يتضاعف الرقم قبل سنة، بفضل دعم وزارة الثقافة والرياضة والشباب.

وفي ما يخص معدلات سحب الكتاب الثقافي، تكشف الدراسة، التي كُنت قد أنجزتها لصالح وزارة الثقافة المغربية ومنظمة اليونيسكو، عن كون هذا المعدل يقارب الألفي نسخة. وتنبه الدراسة إلى أن الرقم يبدو أكبر من الواقع العام، خصوصا أنها شملت دور النشر بمحور الدار البيضاء-الرباط، حيث تتركز دور النشر الكبرى. وقد لا يتجاوز المعدل الألف نسخة لدى عدد من الدور خارج هذا المحور. على الأقل حسب الأرقام التي يعلنها الناشر عن أنفسهم. ويثير ذلك أيضا أكثر من سؤال. فالناشرون يشتكون دائما من ضعف السحب ومن ارتفاع عدد المراجعات، والكتاب يرددون، من جهتهم، الأغنية القديمة التي تجعل الناشر متحايلا.

### كتاب ناشرون بالإيجاب

تكشف الدراسة السابقة عن هيمنة العناوين الصادرة على نفقة المؤلفين على حساب العناوين الصادرة عن دور النشر.

ويثير حجم الإنتاج المنشور على نفقة الكتاب أكثر من سؤال، خصوصا، من جهة، لكون أغلب منشور باللغة العربية، ثم لتركزه، من جهة ثانية، على مستوى الأعمال الأدبية، حيث إن أكثر من نصف الأعمال الأدبية المنشورة خلال القرن العشرين قد صدرت على نفقة أصحابها. وترتفع النسبة لتبلغ الستين في المئة على مستوى الأعمال الشعرية.

وبذلك، تختل حلقات صناعة الكتاب، فالكاتب الذي من المفروض أن تنتهي وظيفته عند صدور الكتاب يتحول إلى مُدبر لمبيعاته ومرجوته. أما أغلب الذين يلجأون إلى النشر على نفقتهم، سواء بطريقة مكتشفة أو مقنعة، فأسبابهم عديدة. فمنهم الكاتب الذي أغلقت أمامه دور النشر ومنهم من يستعجل الوصول إلى مجد مقترض. ومنهم من يكتب طبع بضع نسخ ليحمل صفة كاتب.

مطابع قديمة شاهدة على الماضي

